

## التعاون الثقافي الإسباني العربي

راشد الكيلاني

تبذل اسبانيا جهوداً كبيرة من أجل نشر لغتها والتعريف على حضارتها العريقة في مختلف أرجاء العالم، وعلى الأخص في بلدان أمريكا اللاتينية والعالم العربي، فشعوب أمريكا اللاتينية يعتبرون اسبانيا هي الوطن الأم، فثقافتهم من ثقافتها، وحضارتهم من حضارتها، ولغة معظمهم هي لغتها نفسها.

أما في العالم العربي فقد يكون الأمر مختلفاً. فالثقافة العربية هي أحد الروافد الرئيسة للحضارة الإسبانية، إذ امتزجت هاتان الحضارتان في الماضي وتفاعلتا طوال ثمانية قرون، لينتج عن ذلك حضارة خاصة. فموقع اسبانيا الجغرافي جعلها صلة وصل بين أوروبا والعالم العربي، وقد قامت اسبانيا برسالة حضارية بناءة في هذا الصدد. ويقوم المعهد الإسباني العربي بمديرية الذي كان يرأسه السيد سفير اسبانيا بدمشق حالياً خيسوس ديو ساليديو بنشاطات ملحوظة وأعمال كبيرة، هدفها إحياء التراث العربي الإسباني، كإصدار الكتب والمؤلفات والقاء المحاضرات وطبع المخطوطات وإقامة الندوات، كندوة عبد الرحمن الأول صقر قریش التي استضافتها دمشق منذ عهد قريب. هذا بالإضافة إلى المراكز الثقافية الإسبانية المنتشرة في معظم العواصم العربية، والتي تقوم بجهود مشكورة، وأخص بالذكر هذا المركز الذي نحن برحابه، والذي يقوم بنشاط واسع، بفضل عمل رئيسه السيد خوان ماركو سانثيس وبإشراف وتوجيه السفارة الإسبانية بدمشق.

علت صيحات في الماضي في اسبانيا تطالب طمس كل أثر عربي، وتقول بوجود محو الحقبة العربية من تاريخ اسبانيا. وقد انجر بادی الأمر إلى اعتناق هذا التفكير كثيرون، خاصة خلال فترة الانتصار حيث كان يسود شعور الكراهية، لهؤلاء الذين كانوا يحكمونهم باسم دين غير دينهم، وباسم قومية غير قوميتهم. غير أن العقل والمنطق ما عتما

أن تغلبا ، فأوقفوا تبديل معالم الآثار والأوابد العربية ، بل وباشروا بترميم ما أصابه التلف منها ، فهذه المعالم هي الآن ملك لهم وتشكل جزءاً من تاريخهم ، فعليهم أن يحافظوا عليها دون تبديل أو تغيير ، فهي ليست ثروة عمرانية وحضارية فحسب ، لكنها مصدر هام لجذب السياح من كل حذب وصب ، وهكذا أصبحت السياحة في اسبانيا من أكبر الصناعات التي تدر عليها الربح الوفير . فتطور التفكير واعتبرت حقبة الحكم العربي جزءاً من تاريخ اسبانيا مثله مثل باقي العهود ، الروماني والجيرماني والقوطي ، فحضارة الأمة هي محصلة لمختلف الحضارات المتعاقبة عليها عبر تاريخها . والحقيقة فإن هذه الحضارة التي سطع نجمها في اسبانيا ، لم تكن قائمة على أكتاف العرب وحدهم ، بل اشترك في انشائها جميع سكان الأندلس من عرب واسبان وبربر . وقد اعتنق الاسلام أعداد كبيرة من سكان شبه الجزيرة الايبيرية ، ومع مرور الزمن أصبحت لغتهم هي العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ، بالإضافة الى أن السكان الذين فضلوا الاحتفاظ بدينهم ، قد تعربوا كذلك ، فصار قسم كبير منهم مبرزين في مختلف العلوم والآداب والفنون . ان هذا التعاون الحضاري الذي جرى في اسبانيا بين الشرق والغرب قد أعطى البشرية خيراً كبيراً ، وكانت له ثمار يانعة القطاف ، فتبادل الثقافات بين الشعوب مع الاحترام المتبادل والمعاملة العادلة قد أدى الى تفتت العبقريات وتفتح العقول في الماضي ، ويجب أن يؤدي الى نفس هذه النتائج في هذا العصر .

لم يكن من عادة العرب اكرام الشعوب التي يحكمونها على اعتناق الاسلام ، بل ترك لهم الحرية بعد أن تبين وتشرح لهم أصول الشريعة الاسلامية وأحكامها ، فمن يعتنق الاسلام يصبح متساوياً مع بقية العرب المسلمين في الحقوق والواجبات ، له ما لهم وعليه ما عليهم « لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » . أما من يبقى على دينه فهو حر في عباداته وطقوسه وعاداته ، ولا فرق في المعاملة بينه وبين المسلم الا في دفع الجزية مقابل اعفائه من تاذية الخدمة العسكرية . هذه هي أوامر القرآن « لا اكرام في الدين » .

وقد مهد العرب لجميع الشعوب التي حكموها الطريق للاندماج في مجتمعهم ، وأفسحوا لهم المجال لتقليد جميع الوظائف والقيام بجميع الأعمال التي يرغبون القيام بها .

لم يجد طارق بن زياد وموسى بن نصير صعوبة كبيرة في احتلال شبه الجزيرة عام ٧١١ م . ذلك أن الأوضاع فيها كانت سيئة للغاية ، فالهوة كبيرة بين الحكام وأفراد الشعب الذين كانوا يعيشون في حالة بؤس ، ويلاقون صنوف الاضطهاد والتفرقة الاجتماعية والاقتصادية ، لذلك رحبوا بالفاتحين الجدد واطمانوا لعدالتهم وحسن معاملتهم . غير أن عهد الفتوحات الأولى الذي يدعى بعهد الولاة والذي دام ١٤ عاماً ، لم يكن سوى عهد تثبيت للحكم ، فعهد الازدهار قد بدأ مع عبد الرحمن الأول صقر قریش ، الذي فر من دمشق متخفياً خوفاً من بطش العباسيين اثر سقوط الدولة الأموية . وكان أن أصبح هذا الشاب الأموي المفامر والطموح ، بعد اجتيازه مضيق جبل طارق بوقت قصير سيد

الأندلس بلا منازع ، فجلب إليها الاستقرار خلال حكمه الذي دام زهاء ثلث قرن ، وأخذت في أيامه تتفتح أكام الثقافة والأدب والفن ، وتتقدم مختلف العلوم ، وتطرق الحضارة القادمة من المشرق العربي أبواب الأندلس ، فتفتح أمامها هذه الأبواب مشرعة على مصراعيها لتلجها الرفاهية والتقدم والازدهار .

ان الحديث عن الحضارة الأندلسية او حضارة اسبانيا المسلمة يبقى مبتوراً مهما كان عميقاً ، ذلك لأن تاريخ هذه الحضارة لم يكتب بعد بشكل صحيح ، ويجد الباحث متفرقات عن هذا التاريخ مبعثرة هنا وهناك . وقد وصلت هذه الحضارة الى ذروتها في وقت من الأوقات عمقاً وشمولية وعطاء . ولم تشهد قط شبه جزيرة ايبيريا نظير ما شهدته خلال الحقبة العربية الاسلامية . وعلى الرغم من أن العديد من معالم هذه الحضارة قد ضاع ، فان ما نجا من الدمار قد قدم للعالم معلومات وثروات لا ينضب معينها ، تشهد على أن هذه الحضارة قد كانت أساساً لعهد النهضة في أوروبا [ روينسانس ] .

تقول الباحثة الألمانية الدكتورة سيجفريد هونيكيه في كتابها « فضل العرب على أوروبا » « ان العرب قد حملوا رسالة عالمية وان الدين الذي في عنق العالم للعرب كبير . ان العرب أصحاب نهضة علمية فاقت كثيراً ما تركه اليونان أو الرومان ، فقد بقوا ثمانية قرون يُشيعون على العالم علماً وأدباً وفناً ، وهم الذين أخرجوا أوروبا من الظلمات الى النور . وتضيف قائلة : ان المثل الاسباني هو أكبر دليل على ما أقول . فقد أصبحت في غضون مائتي عام من الوجود العربي فيها ، بلداً غنياً متقدماً ، ارتفع مستوى حياة شعبه ، وانتشر فيه التعليم وازدهرت الثقافة بين سائر طبقاته ، فاضحت اسبانيا علمياً وفنياً أرقى من سائر الدول الأوروبية ، وصارت مثلاً يحتذى وهذا يقصده طلاب المعرفة من كل فج ، وظلت تحمل لواء العلم والمعرفة خمسمائة عام . وقد عرفت اسبانيا كيف تتلقى وتنقل الثقافة العربية التي ورثت الثقافات القديمة اليونانية والفارسية والهندية عرفت كيف تنقلها الى أوروبا ، كانت هذه الرسالة التي نهضت بها اسبانيا تستحق التقدير والاعجاب . ان القول بأن دور العرب لم يتعد دور ساعي البريد الذي اقتصر على نقل التراث القديم الى أوروبا عن طريق اسبانيا ولم يأت من عنده بجديد هو افتراء . فان ما وجدته العرب عند الأمم الأخرى لم يكن كافياً لسد حاجاتهم وارضاء طموحاتهم فأقبلوا على البحث والتنقيب الذاتي ، فكان لهم انتاج وافر في مختلف النواحي العلمية والأدبية والفنية والفلسفية ، وهذا الانتاج وان اعتمد على تراث من سبقهم الا أنه كان نتاجاً خاصاً بهم ، أغنوا به العالم وقدموا ثروات لا تقدر بثمن لأسس الحضارة الانسانية . ا ه » .

خطت الأندلس خلال العهد الأموي الذي دام ثلاثة أضعاف حكم أجدادهم في دمشق ، خطوات جبارة في مختلف نواحي الحياة . فتقدمت الزراعة تقدماً ملحوظاً ، بحيث أصبحت اسبانيا مزرعة كبرى . واستخدموا فيها وسائل تقنية متقدمة كما جلبوا إليها أنواعاً جديدة من المزروعات والخضار والفواكه من المشرق ، كالنخيل والوردة الدمشقية والمشمش

الذي يدعى بالاسبانية دمشق وغير ذلك كثير. فعندما يقصد أحد الأوروبيين اليوم صيدلية أو حانوت ترياق ، ويطلب شراء جوزة الطيب والقرفة والجنزبيل والكمون والطرخون والعنبر فانما يتكلم بمفردات عربية ، جاءت معرفتها عن طريق العرب ، وأضفت على حياة الأوروبي الكثير من المتعة والرفاه ،

أما العمران فقد خطا خطوات جبارة في العهد الأموي وما بعده ، بدأه عبدالرحمن الأول واستمر به خلفاؤه فيما بعد ، فبنوا المدن والقصور والمساجد والمدارس والمستشفيات ، وأقاموا السدود لجمع المياه ونقلوها بواسطة القناطر والأقنية من أماكن بعيدة .

ويعد جامع قرطبة آية في الفن ، يقوم على ١٨٠٠ عمود من المرمر ، موزعة بطريقة تخلب الأبواب ، وكان المصلون يدخلونه من ٢١ باباً مزينة بأجمل النقوش . كما أقيمت في قرطبة منشآت عمرانية آية في الروعة ، أشهرها ضاحية الزهراء التي أنشئت على طبقات متدرجة ، على منحدر جبلي ، ففي الطبقة السفلى انبسطت الحدائق والبساتين ، وفي الطبقة الوسطى قامت منازل موظفي البلاط ، أما قصر الخليفة فكان يشرف على كل ذلك ، وهو آية في الروعة والفخامة . زينت قاعته الكبرى بالذهب والرخام ، وأشرق في وسطها جوهرة كبيرة أهداها امبراطور القسطنطينية للخليفة . وكان للقصر ١٥٠٠ باب وفيه ٤٣٠٠ عمود . أما قرطبة عاصمة الخلافة فقد أصبحت مدينة عظيمة ، بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة في مقتبل القرن العاشر ، وكان بجوارها ٢٨ ضاحية وفيها ١١٣ ألف مسكن بينما لم يكن في أوربامدينة عدا القسطنطينية لديها أكثر من ٣٠ ألف مسكن ، كما كان في قرطبة ( ٦٠٠ ) مسجد و ( ٣٠٠ ) حمام و ( ٥٠ ) مستشفى و ( ٨٠ ) مدرسة عامة و ( ١٧ ) معهداً تربوياً و ( ٢٠ ) مكتبة عامة . أما عدد سكان الأندلس فقد بلغ في القرن العاشر ( ٣٠ ) مليون نسمة . وكانت قرطبة مركزاً تجارياً كبيراً يعيش معظم سكانها عيشة رافهة . وقد بلغ دخل الدولة من الضرائب أكثر من ستة ملايين دينار في العام ، كان يرصد ثلثه لتغطية نفقات الدولة الجارية ، وثلثه على مشروعات العمران ، ويدخر الثلث المتبقى كاحتياط في خزانة الدولة . وقد اضطرتتجار قرطبة في إحدى السنين ، الى حرق كميات كبيرة من القمح لعدم تدني الأسعار .

غير أن أعظم آثار الحضارة الأندلسية أو اسبانيا المسلمة هي الانجازات العلمية والثقافية ، وهي التي كونت حضارة الأندلس ، ورسخت جذورها ، وجعلت تأثيراتها عظيمة على البلاد التي حولها ، فأصبحت مركز إشعاع للعلم والمعرفة ومحجة يقصدها طلاب العلم من كل حذب وصوب . ولم يقتصر هذا الاهتمام بنشر العلم على عهود القوة أيام الدولة الأموية ، بل سار على هذا المنوال ملوك الطوائف أيضاً ، حين انفرط عقد الخلافة ، وأصبحت الدولة دويلات متعددة . أما خلال العهد الثاني للقوة ، أيام حكم المرابطين والموحدين ، فعلى الرغم من انصراف هؤلاء الى حياة الخشونة والزهد ، جرياً على طريقتهن الدينية المتزمتة ، فان خلفاءهم ما عتموا أن عادوا فاندمجوا في حياة الأندلس

الراقية ، وجذبتهم ثقافتها وحضارتها ، فأكملوا رسالة أسلافهم في رفع راية العلم والأدب والفن ، واطلاق حرية الفكر .

ولا شك بأن الاقبال على الثقافة والعلم يتطلب العناية بالكتب والحصول عليها ، لذا فقد شُغف الأندلسيون عامة وأهل قرطبة بشكل خاص باقتناء الكتب . ففي ضاحية قرطبة الغربية فقط ، كانت / ١٧٠ / امرأة تتكسبن عيشهن من نسخ الكتب . وكان ينشر في قرطبة كل عام / ٦٠ / ألف كتاب ، كما كان في مكتبة الحكم الثاني / ٥٠٠ / ألف كتاب وقد علق على هوامش الكثير منها ، كما كان يحمل مكتبته معه على ثلاثين جملاً أينما رحل . ويقال بأن فريديريك الثاني ملك صقلية النورماني قد اقتدى به بحمل مكتبته معه في ترحاله . وقد قلد الأندلسيون ملوكهم ورؤساءهم ، فكان وجود مكتبة في كل منزل ، من مستلزمات الحياة الاجتماعية والثقافية .

يذكر المؤرخون بأن محمد بن اسحق الذي كان سفيراً لدى بلاط بيزنطة ، علم أنه يوجد في الأناضول مكتبة يونانية عظيمة الشأن ، في أحد المعابد اليونانية القديمة المغلقة ، فطلب الحصول على هذا الكنز الثمين ، لكن الامبراطور رفض فتح المعبد الذي أغلق منذ أن اعتنق البيزنطيون المسيحية ، الا أن السفير العربي أصر وألحف بالرجاء ، وأخيراً أذن الامبراطور له فحمل من المعبد ألفاً من المخطوطات ، كان بعضها ممزقاً وبعضها الآخر قد أتلفته القوارض . وقد قدم انقاذ هذه المكتبة خدمة كبرى للحضارة الانسانية .

بينما نجد الدولة المنتصرة اليوم تطلب من الدولة المهزومة تسليمها ما بحوزتها من سلاح وعتاد ، نسمع أن الحكام العرب كانوا يطلبون من خصومهم عند انتصارهم بالمعارك تسليمهم المخطوطات التي لم تترجم الى العربية بعد ، كما فعل كل من هرون الرشيد والمأمون ، فهذه الكتب ، كما قال المأمون ، هي الأسلحة العقلية التي يتسلح بها في سبيل السلام .

قامت لجنة اسبانية بالكشف على التراث العربي الذي أمكن انقاذه ، والموجود في المكتبات الاسبانية ، فتبين لها أن هناك ثروة من المخطوطات العربية لا تقدر بثمن .

كان في قرطبة سوق لبيع وشراء الكتب ، وكان يقال اذا أراد اشبيلي أن يبيع كتبه أتى بها الى قرطبة ، واذا أراد قرطبي أن يبيع آلاته الموسيقية أتى بها الى اشبيلية .

أما المدارس والمعاهد التعليمية فقد كانت منتشرة في كل مكان ، وكان الطلاب يقطنون فيها ، كما يتناولون في معظم الأحيان مرتبات شهرية ، لسد حاجاتهم ونفقاتهم الخاصة . أما الطريقة العادية لطلب العلم فهي التوجه الى الجامع ، فالمساجد ليست للعبادة فحسب ، بل هي دور للعلم أيضاً .

ازدهرت الجامعات في الأندلس منذ القرن التاسع م ، وصارت تجذب المتعطشين للعلم من سكان أوروبا ، ومن أشهر الذين تخرجوا منها جيربرتودي أوفرنيا الذي جلس على كرسي البابوية فيما بعد باسم البابا سيلفستري الثاني . أما حركة الترجمة فقد

نشطت نشاطاً كبيراً ، وكانت تجري باتجاهين ، أولهما ترجمة أمهات الكتب الى العربية وثانيهما ترجمتها الى اللاتينية ، وأهم مركز للترجمة كان في طليطلة ، ويرجع فضل كبير لطران طليطلة ريموندو بتنشيط حركة الترجمة الى اللاتينية ، وكان من أشهر المترجمين الشماس دومينجو كونسالفو وخوان بن داود ، اللذين ترجما كتب ابن سينا والغزالي وابن جبرول ، وقام يوحنا الاسباني بترجمة كتب الخوارزمي . كما قام اليهود والاسبان المستعربون بالتأليف أيضاً ، فقد وضع ابن عزرا عدة مؤلفات في الفلك والطب والفلسفة ، أما ابن ميمون الذي تولى التدريس في جامعة اشبيلية ، فقد وضع مؤلفات في الفلسفة والطب ، ثم رحل الى المشرق وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين الأيوبي . ولكننا نستطيع القول بأن أشهر المترجمين من أصول اسبانية من بين علماء الأندلس هما : ابن رشد وابن حزم . فقد وضع ابن حزم مؤلفه الشهير « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهو كتاب لم يسبق له نظير في الأدب العالمي . يحوي دراسة مقارنة بين مختلف الديانات والنحل اليهودية والمسيحية والاسلامية : كما ألف كتاب « طوق الحمامة » وهو مقطوعات غنائية نثرية وشعرية في الحب والعشق ، وقد كان له تأثير كبير في ادخال فكرة الحب العذري في الأدب الأوروبي . ويقال بأن شعره هذا كان من الأسس التي قامت عليها أناشيد التروبادور أي شعراء الطرب الجوالين .

وصل طليطلة جورد فون كريمونا موفداً من قبل ملك صقلية ، لترجمة كتاب الماجسطي المشهور لبطليموس ، ولكن ما ان حل هذا الرجل في اندلس ، حتى استولت عليه الدهشة ، من علو شأن هذه الثقافة التي أصبحت بمتناول يده ، فبقي مدة عشرين عاماً في الأندلس ، ترجم خلالها أكثر من ثمانين كتاباً الى اللاتينية .

وما كادت أوروبا تتسلم هذه الثروات القيمة من العلوم والمعارف ، حتى تفتحت العقول فيها وجاءت بنتائج خيرة ، فبدىء بإنشاء الجامعات العلمية وكان أولها جامعة ساليرنو الطبية في ايطاليا ، ثم تدفقت هذه الينابيع الثرة الى مونبيلييه وبولونيا وباريس وأوكسفورد وغيرها ، وكانت هذه الجامعات تستخدم الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية .

والطبيب الذي يبرز اسمه في هذا المجال هو الرازي وكتابه « الحاوي » الذي هو دائرة معارف طبية كبرى .

كانت نسخة من هذا الكتاب موجودة في مكتبة كلية الطب بباريس ، وعندما أراد استعارتها ملك فرنسا لويس الحادي عشر طُلب اليه دفع تأمين باهظ ، نظراً لحرص الكلية الكبير على هذا الكتاب .

والرازي هو الذي استطاع القضاء على شهرة جالينوس بالطب ، وكان ممن اقتدى به العالم الاسباني آرنولدو في القرن الثالث عشر ، الذي أتقن العربية وتعمق في دراسة التراث العربي .

ويلي الرازي ابن سينا الذي عرف بكتابه « القانون في الطب » .

وكذلك الزهراوي الأندلسي مؤلف كتاب « الجراحة والآلات الجراحية » الذي اشتهر بعلاج الأورام السرطانية وبتحضير الأدوية .

أما ابن رشد الأندلسي فهو صاحب الرأي القائل بأن أسباب الأمراض والأوبئة يجب التحري عنها خارج جسم المريض ، وهذه اشارة الى نقل الأمراض والأوبئة الى الانسان من قبل الجراثيم . ولابن رشد سبعة كتب طبية تسمى الكليات Colget ، هي شروح لكتاب القانون لابن سينا . هذا اضافة الى مؤلفاته الأخرى في باقي العلوم .

وبقيت هذه الكتب عمدة دراسة الطب في العالم لعدة قرون . وكان الطب يعتبر في بلاطات الأندلس أرفع العلوم شأنًا .

ومن جملة اكتشافات الأندلسيين الطبية جرثومة الجرب ، التي اكتشفها ابن زهر ، كما وضعوا قواعد التشخيص ، معتمدين على النبض والبول . ويجب ألا ننسى ابن البيطار الذي كان أكبر عالم نباتي لا في الأندلس وحدها بل في العالم . فقد ألف كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » الذي حوى بين دفتيه جميع المواد الصيدلانية في عصره . ثم تابع العلماء الاسبان وغيرهم من الأوربيين ، فوضع كوفير تصنيفاً للنباتات الطبية على شكل قاموس يشبه تصنيفات العصر الحديث .

جاء في كتاب « فضل العرب على أوروبا » ، الخطاب التالي المرسل من أحد نزلاء مستشفى عربي في الأندلس الى والده منذ عشرة قرون . وهو يظهر مدى التقدم الطبي والرعاية الصحية في تلك العصور ، سواء كان هذا الخطاب حقيقياً أم وهمياً تصورياً :

والدي العزيز : « لا تحضر الي نقوداً عند زيارتك لي ، لأنه سيصرف لي عند مغادرتي المستشفى خمس قطع نقود ذهبية وكسوة جديدة ، لئلا أضطر للعمل خلال النقاة . انني أقيم في القاعة الخارجية قرب المصحة الشعبية حيث يكشف فيها على المريض القادم مجدداً الأطباء وبرفقتهم الطلبة . وقد يعرض المريض اذا لزم الأمر على كبير الأطباء ، ومن ثم يحمله الممرض الى قسم الرجال بعد أن يحمله ويلبسه ملابس المرضى . نحن نتناول كشف الأدوية من صيدلية المستشفى ، وعلى يمين قاعتي يوجد قسم الجراحة ثم قسم النساء وبعده المكتبة فقاعة المحاضرات فالقاعة النهارية التي يرتاح فيها المرضى ويستمعون للموسيقى » . هـ « وكان في قرطبة وحدها خمسون مستشفى شبيهاً بهذا المستشفى .

قام في القرن الثاني عشر نفر من الحجاج الأوربيين بزيارة قبر الرسول يعقوب في شمال اسبانيا ، فعادوا ومعهم أول ورقة دخلت أوروبا ، فتهاافت القوم على استيراد الورق من الأندلس . وهكذا انتشر الورق في العالم ففضي بذلك على احتكار العلم والمعرفة . فقد نقل العرب صناعة الورق عن الصينيين ، ولكن الصينيين يقرون بأنهم اقتبسوا استخدام البوصلة عن العرب . والأندلسيون هم أول من استخدم البارود في أوروبا ، فقد أحدثت مدفعيتهم في القرن الرابع عشر الذعر الشديد في المارك حتى اعتقد وقتذاك أن الساعة قد اقتربت وأن الدنيا قد أذنت بالزوال .

أن ما يسمى بالفن المدجن Arte mudejar في العمارة هو في الواقع من عمل المدجنين ، أي العرب الذين بقوا في اسبانيا بعد زوال الدولة العربية . وقد أثبت لامبير الأساس الأندلسي لطراز عقد القناطر في الهندسة القوطية التي انتقلت من جامع قرطبة الى قناطر الكنائس في فرنسا وانكلترا .

أما الزخرفة فتأثيرها أقوى ، وكان في مقدمتها الزخرفة بالخط الكوفي الذي هو أجمل خط عرفه الانسان . وقد زخرفت به واجهات بعض الكنائس ، حيث وجد بينها تحميدات اسلامية نقلها الفنانون دون أن يتثبتوا من معانيها .

وضع الأندلسيون مؤلفات قيمة في علم الجغرافيا ، أهمها السفر الضخم للشراف الإدريسي ، وضعه في القرن الثالث عشر بناء على طلب ملك صقلية روجر الثاني النورماني وسماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وأرفقه بكرة أرضية صنعها من الفضة ، قطرها متران . وكان الإدريسي قد أكمل علومه في قرطبة ، وقام في سبيل وضع كتابه هذا برحلات استكشافية طويلة ، الى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا دامت ربع قرن .

كما يدين العالم في الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء الأندلسيين . ومن المعلوم أن كلمة الجبر Algebra هي عربية وتعني جبر الكسور . كما أن علم اللوغاريتمات قد وضعه العالم العربي الخوارزمي وسمي باسمه المحرف . أما الأرقام فقد اقتبسها العرب عن الهنود وانتقلت الى أوروبا من الأندلس ، وأطلق الأوروبيون لفظة الصفر على هذه الأرقام Chiffre لأنهم اعتبروا الصفر هو أبو الترقيم وهو كذلك في الواقع .

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند الأندلسيين وكان برج مئذنة اشبيلية الذي دعي فيما بعد الخيالدا Algirda يستخدم مرصداً ، ومن المعروف أنه كان يصعد الى هذا البرج أو هذه المئذنة على ظهر الدابة لأن طريقها ذو سطح مائل وهي ذات بناء هائل . وقد صنع عباس بن فرناس المشهور بأنه أول من طار بالأندلس ، صنع قبة تشبه قبة السماء الطبيعية ، وأبدع في تمثيل الأفلاك فيها ، حتى كان يخيل الى الناظر اليها ، أنه يرى النجوم والغيوم والبرق والرعد بشكنها الحقيقي . وقد أنشأ الملك ألفونسو العاشر ملك كاستييا ( قشتالة ) مرصداً في مدينة بورغوس بواسطة مستشار يهودي درس في الأندلس .

كان البيروني أول من قال بأن الشمس هي مركز الكون عام ١٠٠٠ م وذلك قبل أن ينأى كوبرنيك بذلك .

وطبق الأندلسيون الرياضيات في دراسة الموسيقى كما عرفوا الأنغام المسجلة (النوتات) قبل أن يعرفها الايطالي جويدو دي أريتسو الذي عزي اليه اكتشافها . كما أن معظم الآلات الموسيقية الحديثة هي تطوير للآلات التي كان يستخدمها العرب ، مثل القيثاره والطنبور والرباب والبوق والناي . ومن المعروف أن البيانو هو ابن القانون . ويعتبر



المغني الأندلسي زرياب أعجوبة زمانه ، وهو الذي طور العود فجعله أخف وزناً بثلاث العود القديم ، وأضاف الى أوتاره وترأ خامساً كذلك .

عندما يسمع الانسان الموسيقى الاسبانية الأصلية والغناء الفتان المسمى فلامنكو، يشعر بالحال بالعلاقة الوثيقة بينه وبين الموسيقى والغناء العربي . فقد تأثر كل منهما بالآخر ، وظهر فن جديد بين هذا وذاك .

ان ما نلمسه في شعر الأندلسيين من رقة في الأحاسيس وعمق بالعواطف ، ومن استجابة لمفاتيح الطبيعة ، انما هو ارث اسباني ، كما أن شعر الزجل والأرجوزة والموشحات ما هي الا فن أندلسي تأثر بالشعر الاسباني وأدخل الى العربية . كما أصبح شائعاً في أوروبا ولكن بطريقة أخرى ، على السنة شعراء الغناء الجواله التروبادور وهذه الكلمة أصلها عربي من الطرب . فقد اجترأ شاعران مولدان من أصول اسبانية هما الأعمى ابن معافى وابن قرمان ، مبتكرأ الزجل والأرجوزة ، على تحطيم وحدة الشكل الروتينية التي تمتاز بها القصيدة العربية ، فجزءاها الى أسماط متعددة ، مقلدين في ذلك الشعر الاسباني .

يعتبر ابن رشد القرطبي Averros من أشهر فلاسفة الأندلس الذين مهدوا بواسطة مؤلفاتهم وشروحهم لدراسة الفلسفة اليونانية عامة وفلسفة أرسطو خاصة . وقد وُجد في مكتبة الاسكوريال بمدريد /٨٧/ مؤلفاً لابن رشد في الطب والفلسفة وغير ذلك . وكان لأرائه تأثير كبير على الفكر الفلسفي الأوروبي ، فنشأ تفكير أو طريقة فلسفية تدعى بالرشدية ، توافر لها أنصار في أوروبا طوال قرنين . أخذ عنها القديس توما فكرة ضرورة الوحي الالهي ، وأخذ عنها سيجر مسألة قدم العالم ، أي أن هذا العالم ليس مخلوقاً في الزمان ، بل هو قديم قدم الباربي نفسه ، وأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات . غير أن هذه الأفكار الجريئة قد جلبت عليه نقمة الفقهاء بالأندلس التي أدت الى محنته وكرهية الكنيسة التي حرمت نظرياته .

أما ابن خلدون الاشبيلي فقد حاول في مقدمته التي جعلها مدخلا لكتاب تاريخ عصره، أن يرسم الخطوط الكبرى لأول فلسفة تاريخية عرفها الفكر الانساني ، وتوصل الى مجموعة من الأفكار والاستنتاجات الثاقبة بتجربته العملية ، نتيجة لتنقلاته وخدماته الكبرى لحكام عصره في المشرق والمغرب العربي ، كوزير ودبلوماسي وقاض ومفاوض ، في حقبة تاريخية مضطربة . ويعتبر ابن خلدون المؤسس لعلم الاجتماع . وقد أخذ عنه الغربيون الكثير من نظرياته وقوانينه في هذا العلم ، وكان له تأثير على العالم لعدة قرون .

كان بسكال يقول لمن يريد أن يحثهم على الاعتقاد بوجود الآخرة : اذا كسبتم كسبتم كل شيء ، واذا خسرتم لم تخسروا شيئاً . وكان تأثير الغزالي على بسكال ظاهراً فالغزالي قد أورد في حجته عن نفس الموضوع قول علي بن أبي طالب لمن يماري بوجود الآخرة : ان كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً ، وان كان كما قلت 'هلكت' ونجوت' .

أما دانتى الشاعر الايطالى الكبير فقد تأثر بكتب محي الدين بن عربى وبقصـة  
المعراج ، فتصويره للجحيم والجنة فى رائعتـه الكوميديا الالهية ، يشابه تشابهاً تطابقياً فى  
بعض الأحيان ، ما جاء فى قصة المعراج مع تفصيلاته الدقيقة .

أما الطبيب والفيلسوف ابن الطفيل الاشبيلي ، أستاذ ابن رشد ، فقد وضع قصته  
الفلسفية ( حى بن يقظان ) التى استعار اسم بطلها ، من رسالة رمزية صوفية لابن  
سينا . فقد تخيل ابن الطفيل أن حى ابن يقظان هذا هو صبي يتيم ، ترك ليعيش  
وحده فى جزيرة منعزلة ، فاستطاع بواسطة التأمل ، أن يقوده تفكيره الى وجود الخالق ،  
كما اكتشف بطريق الاتصال بالطبيعة الأسس الضرورية لقوانين هذه الطبيعة . وقد ترجمت  
هذه الرسالة الى مختلف اللغات وحازت اعجاب المفكرين . وقد أوحى هذه القصة الى ديفو  
بقصة روبنسون كروزو الشبيهة بها .

ترك رحالتان عربيان للتراث الانسانى والثقافة العالمية صورتين زاهيتين عن الحضارة  
الشرقية فى عصرهما . وهما ابن جبر المولود فى بلنسية عام ١١٤٥ م وابن بطوطة ،  
المولود فى طنجة عام ١٣٢٥ م أبحر ابن جبر عام ١١٨٣ لأداء فريضة الحج ، وما ان انتهى  
من حجه حتى بدأ رحلته الأولى الى بغداد فالموصل فحلب فدمشق فعكا ، ومنها الى صقلية ،  
ووصل غرناطة عام ١١٨٥ م أى أن رحلته دامت ثلاثة أعوام . غير أن الحنين الى الأسفار  
لم يلبث أن جذبه بعد أربع سنوات ، فولى وجهه مرة أخرى قبـل المشرق ، حيث قضى  
عامين آخرين . وعندما بلغ سن الثالثة والسبعين غامر برحلة أخيرة الى الشرق أيضاً ،  
ولكن المنية أدركته قبل أن يصل الى الاسكندرية . وكان قد قبل ذلك مشاهداته بأسلوب  
بارع خال من تصنع المحترفين .

والخلاصة أن الشعب العربى والشعب الاسبانى قد تعاونا أثناء أحقاب زمنية  
متطاولة فى انشاء حضارة متألقة ، على ربوع شبه الجزيرة الايبيرية . رسخت معالمها فى  
تاريخ الشعبين العريقين ، وعلى مختلف الميادين ، وأمدت أوروبا بينابيع المعارف والعلوم .  
ونأمل أن يبقى هذا التعاون عميقاً ، بل أن يزداد ، وذلك فى سبيل ازدهار حضارة البحر  
الأبيض المتوسط ، وتقدم الحضارة العالمية وفى سبيل توطيد السلام العالمى والأخوة  
الانسانية .

